الفصل الحادي عشر

تراث الحرب*

تقديس الحرب

منذ ثمانمائة عام، قال حاج أسباني وهو في طريقه إلى مكة: «المحاربون منهمكون في حروبهم أما الناس فمرتاحون»، يواصلون حياتهم، بينما تواصل الفئات المتحاربة طقوسها القديمة من التشويه المستديم والقتل. لكن أصول هذه الطقوس ليست واضحة جداً. ويرى بعض علماء الإناسة أنها تعود إلى أصول الزراعة، بعد أن ترك تراجع الصيد البشر في حاجة إلى رمز رفيع، ووسائل «للحفاظ على المجد القديم، والرفقة، التي وجدت سابقاً أثناء حملات الصيد». أما القيود على النخبة المحاربة، التي وصفها الحاج الأسباني، داخل أوروبا على

* هذه نسخة محررة ومحدثة من كلمة ألقيت في 13 نيسان، 1997، كجزء من محاضرات هانا السنوية في الفلسفة، في جامعة هاملاين.

الأقل، فيمكن أن تُربط بما دُعي أحياناً بـ «تقديس الحرب»، أي الاندماج بين العسكر والكنيسة. وتكشف سجلات الكنيسة، التي تنتمي إلى ذلك الزمن، محاولات لخلق نوع ما من المجال للكنيسة نفسها، ولغير المقاتلين بعامة. ويعلن مرسوم يعود إلى 1045 «أنه يجب ألا يحصل هجوم على رجال الدين، والرهبان، والراهبات، والنساء، والحجاج، والتجار، وزوار المجالس، والكنائس، والأراضي المحيطة بها، والمقابر، والأديرة، وأراضي الإكليروس، والرعاة وقطعانهم، والحيوانات الزراعية، والعربات في الحقول، وأشجار الزيتون».

وإذا عاد المرء إلى المصادر العربية حول الغزوات الإفرنجية، التي يدعوها الغرب بالحملات الصليبية، سيعرف إلى أي مدى تم التقيد بهذا المرسوم، الذي أصدره مجلس ناربون Narbonne، خارج ملكيات الكنيسة. فاللاجئون الذين كانوا يفرون إلى بغداد بعد غزو القدس في 1099، بعد نصف قرن، أفادوا أن الغزاة نهبوا، ودمروا جميع البلدات، والمدن في طريقهم، وقتلوا الفلاحين، وسكان البلدات، وحين وصلوا إلى المدينة المقدسة ـ بحسب مؤرخين معاصرين ـ «تدفق المحاربون الشقر، الذين يرتدون الدروع، في الشوارع بسيوف مشرعة، وذبحوا الرجال، والنساء، والأطفال، ونهبوا المنازل، وسلبوا المساجد، ولم يتركوا مسلماً واحداً حياً داخل أسوار المدينة». وحين توقف القتل بعد، بضعة أيام، كان هناك آلاف

من البشر يتمددون على برك من الدماء على عتبات منازلهم، أو إلى جانب المساجد. كانت هناك جماعة يهودية في القدس لقيت المصير نفسه. وانسحبت الجماعة أخيراً إلى الكنيس الرئيسي، الذي أحرقه الغزاة الفرنجة ودمروه، بينما أولئك الذين نجحوا في الهرب تم أسرهم، وقتلهم، وأحرق البقية أحياء. وهكذا انتهت الحملة الصليبية الأولى بدم المغزوين يسيل في الشوارع بينما كان الفرسان، وكما قالوا: «يبكون من فرط المتعة»، جاؤوا إلى كنيسة الضريح «وشبكوا أيديهم الملطخة بالدماء سوية وهم يصلون»، وهذا اقتباس من كتاب تاريخي غربي يتحدث عن هذا الموضوع. ولم يطمس المؤرخون الغزاة أنفسهم هذه الحقائق في ذلك الوقت. وصفوا كيف سلق محاربو الكنيسة «رجالاً وثنيين في القدور»، ثم خوزقوا الدجاج على السفافيد، وأكلوه مشوياً». وشعر أحد المؤرخين أنهم ذهبوا بعيداً أكثر من اللازم بقليل: «لم تقدم قواتنا على أكل الموتى من المسلمبن، والعرب، فحسب، وإنما أكلت الكلاب أيضاً». يجب أن يكون هناك بعض الحدود في النهاية.

ويروي مؤرخ عربي أن ريتشارد قلب الأسد اتبع، فيما بعد، الممارسات نفسها، وكان يقيد السجناء، الذين يشكلون عبئاً، مع بعضهم بعضاً ـ الجنود الأسرى مع نساء وأطفال أسرهم ـ ويرسلهم إلى جنود الصليب، الذين ينقضون عليهم بوحشية بسيوفهم الضالعة، ورماحهم، وبالأحجار إلى أن يتم

إخماد جميع صرخات الانتحاب». ووصلت عمليات التدمير، والفظائع، إلى أوجها مع غزو القسطنطينية في 1204، الذي قاد إلى مجازر ضخمة، ونهب، ومذابح، وتدمير لكثير من آثار الحضارتين اليونانية، والرومانية، وإلى قتل شامل للمدنيين، والكهنة، والرهبان، وغيرهم. وبعد وقت قصير، اتبع الغزاة المغول، بقيادة جنكيز خان، النهج نفسه، في المناطق نفسها.

وكان هذا كله، لدى الجانب المسيحي، جزءاً من «تقديس الحرب»، ما يدعوه المؤرخون الحديثون بـ «الإصلاحي الإكليركي للمقاتلين غير المتدينين»، محاولة لإضفاء بعد روحي على الفظائع والأعمال الوحشية لعصر الفروسية. ويقول مؤرخ بريطاني حديث:

إن الفارس الذي ينضم إلى الحملات الصليبية يستطيع الحصول على الجانب الروحي الذي تاقت إليه روحه بحماسة، أي على خلاص تام، وصفح عن الذنوب. يمكن أن يمارس القتل طوال اليوم خائضاً في الدم إلى كاحله، ثم حين يخيم الليل يركع باكياً من المتعة، وبالفعل «يبكي من فرط المتعة» ـ كما عبروا هم أنفسهم عن ذلك ـ على مذبح الضريح، ذلك ألم يكن هو أحمر من معصرة النبيذ؟

ويتابع المؤرخ نفسه قائلاً: «إن المرء يستطيع فهم شعبية الحملات الصليبية»، وهذه ليست المحاولة الأولى، وبالتأكيد

ليست الأخيرة، لوضع وشاح النبالة على مشروع كريه، ومخز كهذا.

وتندرج جمع هذه المسائل، بين مسائل أخرى، يمكن أن تنشأ في الذهن حين نقرأ اليوم لغة مؤثرة عن صراع الحضارات القادم، نموذج الحقبة الجديدة التي تبزغ الآن، وبالطبع ما ذكرته الآن ليس إلا حبة من جبل.

لنعد إلى مرسوم مجلس ناربون في 1045. تذكروا الاستثناءات التي وضعت قائمة بها: يجب ألا تُشن هجمات على رجال الدين، والرهبان، والراهبات، والنساء، الخ. فهذه القائمة من الاستثناءات تشير، بشكل ما، إلى أهداف الحرب ـ بكلمات أخرى، تلك التي يجب أن تُستثنى ـ وتراثها. ما وصفه الحاج الأسباني كان، بلا شك، صحيحاً، لكنها كانت لحظة غير عادية البتة. فالأعمال البطولية الفذة لمحاربي الصليب، ولجنكيز خان هي أكثر نموذجية.

وربما كانت الحدود القصوى للوحشية ـ الوحشية المدونة، على الأقل ـ هي في التواريخ الأولى، في التوراة. وأفترض أنه ليس هناك، في المعايير الأدبية كلها، شيء يمجد الإبادة الجماعية، بحماسة، واتقاد وإخلاص، مثل وصايا الإله المحارب لشعبه المختار، فعلى سبيل المثال، إن وصاياه المرسلة إلى الملك شاؤول من خلال النبي صموئيل، الذي كان

الأكثر حكمة بين القضاة، والذي نقل الأمر إلى شاؤول كي يهاجم عماليق، ويقتل جميع الرجال، والنساء، والأطفال، والرضع، والثيران، والخراف، والجمال، والحمير، والسبب هو أنه منذ قرون وقف العماليق Amalekites في طريق العبرانيين، الذين كانوا يغزون أرضهم المقدسة. وشاؤول، كما يمكن أن تتذكروا، استثنى شخصاً واحداً هو ملك عماليق، وبعض الماشية. وحين اكتشف صموئيل الأمر، جن من الغضب، وقطَّع الأسير أمام سيد جلعاد Gilgal. وهكذا تتواصل القصة.

تأثر الفرنجة بهذه الدروس، بالتأكيد، كما تخبرنا سجلاتهم. كما تأثر بها الإنكليز «الورعون»، الذين غزوا هذه البلاد، ورأوا أنفسهم كورثة للإسرائيليين، واستولوا على أرضهم الموعودة، وخلصوا البلاد من «سلالة المحليين الأميركيين، سيئة الحظ، التي نقوم بإبادتها بقسوة ووحشية لا تعرف الرحمة». هذه هي الطريقة التي وصف بها جون كوينسي آدامز المشروع فيما بعد، بعد وقت طويل من إسهامه، الدال جداً، فيه، وفي الحقيقة كان يدخل طوراً جديداً، بعيداً في الغرب.

ولم يبدأ الاعتراف بالخطيئة الأصلية لتاريخنا إلا في السنوات الأخيرة. وهذا واحد من كثير من التراثات الإيجابية لتخمر الستينيات، والذي كان له تأثير هام، وكما آمل، مستمر في رفع المستوى الأخلاقي والثقافي لهذا المجتمع.

الغزوات الأوروبية

كان التاريخ الأوروبي وحشياً على نحو خاص، ويشمل هذا غزوه لمعظم أنحاء العالم. وكانت هذه الغزوات تقريباً حروباً صغيرة من وجهة النظر الأوروبية، كما أشار مؤرخون عسكريون بارزون. أي أنها لم تكن مثل الحروب التي كان يشنها الأوروبيون ضد بعضهم بعضاً. خذوا الثورة الأمريكية كمثال: كانت الثورة الأمريكية نوعاً من العرض الجانبي بالنسبة للبريطانيين. ففي السنوات نفسها تماماً، كانوا يشنون حرباً بوزن مماثل في الهند، هي حرب الماراثاوي Marathi. وكانت الثورة الأمريكية نفسها جزءاً هامشياً من الحروب العالمية، التي كانت تجري بين القوى الأوروبية الرئيسية. ونجحت الثورة هنا بشكل كبير لأنه صادف في تلك اللحظة أن بريطانيا كانت تقف ضد بقية القوى الأوروبية الرئيسية، ولم تستطع أن تخصص انتباهاً كبيراً للحرب الصغيرة التي كانت تجري هنا، في الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه حرب صغيرة في الهند، وتجري حرب رئيسية مع فرنسا وإسبانيا وآخرين. وكانت القوى الكبرى، وخاصة فرنسا وبريطانيا، تخوضان حرباً هنا، حرباً طويلة، وكانت أجزاء مختلفة من السكان المحليين تدعم جانباً أو آخر. ما ندعوهم بالموالين كانوا يدعمون البريطانيين؛ وما ندعوهم بالوطنيين كانت تدعمهم فرنسا؛ وخاض الكثير من القتال القوتان الكبيرتان ـ البريطانية والفرنسية ـ بمساعدة محلية.

وأعتقد أن هذا سيكون، على الأرجح، طريقة أكثر صحة لوصف الحرب الثورية.

وإذا ما التفتنا إلى جزء آخر من العالم، كانت قوات روبرت كليف تزيد بنسبة عشرة مقابل واحد في معركة 1757 الحاسمة، التي مهدت الطريق لاستيلاء شركة الهند الشرقية على البنغال، مما مهد للغزو البريطاني للهند كلها. كانت البنغال غنية بشكل فائق للعادة، ، بحيث أن الفاتحين، والغزاة التجاريين البريطانيين ذهلوا من ثروتها. وكانت الهند المركز التجاري، والصناعي، للعالم في القرن الثامن عشر. وكانت، على سبيل المثال، تنتج من الحديد أكثر من كل أوروبا. ومن المذهل أن المناطق الغنية، والمنتجة بشكل فائق للعادة، أصبحت، طوال القرون، رموزاً لليأس وغياب الأمل، مثل بنغلادش وكلكتا. وهذه سمة نموذجية من سمات الغزو الأوروبي، الذي يقول الكثير عن ميراث الحروب الصغيرة، من وجهة نظر الغزاة.

هاييتي هي مثال آخر. من المحتمل أنها كانت أغنى مستعمرة في العالم، ومصدراً لكثير من ثروة فرنسا. وهي تواجه الآن اختفاء محتملاً في العقود القليلة القادمة. مثال آخر هو جزر الهند الشرقية East Indies، أي اندونيسيا المعاصرة، التي قدمت حوالي 20٪ من الدخل القومي لهولندا الغنية جداً حتى الحرب العالمية الثانية، وكحاشية صغيرة، يمكن أن نضع في ذهننا أن مساعدة مشروع مارشال لفرنسا وهولندا، القوتين

الإمبرياليتين الرئيسيتين، غطى تقريباً كلف محاولاتهما الدموية للحفاظ على مستعمراتهما في جنوب شرق آسيا فحسب.

ربما كانت العوامل الرئيسية للغزو الأوروبي هو تقدم ضئيل في التقنية العسكرية، ولكنني أعتقد أنها، بشكل رئيسي، ثقافة الوحشية: «العنف التدميري الشامل للحرب الأوروبية»، الذي «روَّع» الشعوب المغزوة من جزر الهند الشرقية إلى العالم الجديد، كما يقول المؤرخ العسكري البريطاني جيوفري باركر. ويشير تاريخ شركة الهند الشرقية إلى أن «الحرب في الهند كانت لا تزال رياضة، بينما كانت في أوروبا علماً». وبالفعل، وصل آدم سميث إلى استنتاجات مشابهة في ذلك الوقت، شاجباً ما دعاه بـ«الظلم الوحشي للأوروبيين»، مفكراً بشكل رئيسي بالإنكليز، الذين كان اهتمامه الرئيسي منصباً عليهم بشكل ملائم. أما المستوطنون الإنكليز، الذين وصلوا إلى هنا، فقد واصلوا تراث الوحشية المطلقة في الحروب ضد الهنود وتوسيع الأراضي القومية. على سبيل المثال: غزو أندرو جاكسون لفلوريدا الإسبانية، والذي كان حدثاً مهماً بطرق عديدة، والحرب التنفيذية الأولى في تاريخ أمريكا.

وهذا تراث أصبح هو التراث المهيمن. وفي الحقيقة يجب أن تنظروا نظرة ثاقبة إلى التاريخ الحديث لتعثروا على حرب ليست حرباً تنفيذية تنسجم مع المبادئ المؤسساتية، والتي تتطلب أن يعلن الكونغرس الحرب. خيضت حرب جاكسون

التنفيذية ضد من كانوا يُدعون بـ «السيمينولز» Seminoles. ودعوا بـ «القطعان المختلطة للهنود والزنوج الخارجين عن القانون». الهنود الخارجون عن القانون والعبيد الفارون: هكذا عبر الغزاة عن الأمر. وعلّمتْ تكتيكات جاكسون «الفعالية المفيدة» للإرهاب، كما علق وزير الخارجية جون كوينسي آدامز في ورقة مشهورة بررت الفظائع الضخمة، والعدوان وغزو الحرب التنفيذية، إنها ورقة رسمية أعجبت كثيراً جيفرسون، وباحثين بارزين من القرن العشرين.

ينبغي أن أضيف أن حروب الإبادة هذه تعيش في الوعي القومي. ومؤخراً نُشرت مقالة على الصفحة الأولى في وول ستريت جورنال حول التغيرات في الممارسات المطبخية في الولايات المتحدة مع مرور الأعوام. وبدأت بنقاش لـ«حساء السيمنول» Seminole دون أثر من الارتباك. والسيمنولز هو جالب الحظ أيضاً لفريق جامعي لكرة القدم يتنافس بانتظام من أجل البطولة القومية. ولو أن النازيين فازوا في الحرب العالمية الثانية ربما لخدم اليهود والغجر كجالبي حظ لجامعة ميونيخ. بعامة، ينظر الرابحون والخاسرون إلى ميراث الحرب بشكل مختلف.

استمرت هذه التقاليد بعد غزو الأراضي القومية. ففي مطلع هذا القرن، كانت القوات الأمريكية تحرر الفلبين، محررة عدة مئات الآلاف من الأرواح من أحزان الحياة وعذاباتها.

وكانت الصحف متأثرة جداً بهذا المسعى البطولي الكريم، ووصفته ببعض الصحة. وقاد الحرب مقاتلون هنود متقدمون في السن كانوا يقتلون «المزيد من الزنوج» كما قالوا، وهكذا كان كله شائعاً. وأفادت الصحف، بشكل إيجابي جداً، أن القوات الأمريكية «كانت تذبح السكان المحليين على الطريقة الإنكليزية»، بحيث أن «المخلوقات المضللة، التي تقاومنا ستحترم أسلحتنا على الأقل»، وتعترف، فيما بعد، بنوايانا الجيدة. وكانت المخلوقات المضللة، تلك التي نجت من الموت، تذعن بالفعل لذبحها، كما شرح عالم اجتماع أمريكي بارز. كان يطور فرضية دعاها «الإذعان دون إذعان». إنها الطريقة التي يقال أن الطفل يذعن بها ضمنياً حين يمنعه والداه من الجري إلى شارع مزدحم. سيرى الطفل فيما بعد أن منعه كان لصالحه، بكلمات أخرى، كان بالفعل يذعن. وينطبق الأمر نفسه على المخلوقات المضللة التي تقاومنا.

وتتواصل هذه الموضوعات دون تغيير يُذكر حتى اليوم الحاضر، وهكذا، فهي، في الحقيقة، تحاكي الحروب ضد الهنود. وبُعثت من جديد، أثناء حروب الهند الصينية، في الأدب العسكري والشعبي. ففي أثناء الحرب، والحروب الإرهابية الأمريكية في أمريكا الوسطى في الثمانينيات، شرحت المجلة الليبرالية الرئيسية أنه يجب أن نواصل «بغض النظر عن عدد القتلى» لأننا لدينا مهمة مثل القديسين ـ الذين سموا أنفسهم

هكذا ـ الذين ارتكبوا المجازر ضد هنود نيوإنجلاند بينما هم يحملون الكتاب المقدس؛ ومثل أسلافهم؛ وكثيرين آخرين مثلهم: القطعان المغولية لجنكيز خان، على سبيل المثال، أو قبائل أتيلا الهوني، أو الرومان أو الآشوريين، أو العبرانيين، الذين غزوا أرض كنعان، هذا إذا اقتطعنا عينات من قائمة طويلة.

ويمكن أن تعكس الوحشية الخاصة للحرب الأوروبية تاريخ أوروبا نفسها. ففي المركزين الأساسيين للحضارة الغربية ـ فرنسا وألمانيا ـ وطوال مئات السنين، كانت المهمة الأرفع، والأكثر نبالة، هي ذبح بعضها بعضاً. وانتهت هذه المهمة السامية في 1945، لأن علم الحرب، الذي أتقنته الحضارة الأوروبية، وصل إلى مستوى غرائبي بحيث أن الحادثة التالية ستكون الأخيرة، دون أن تترك ميراثاً للحرب، على الأقل، لأي شخص، كي يسجله في تاريخ، أو فن.

القرن العشرون

إن تراث غزو العالم واضح بما يكفي. وإذا لم نذكر إلا المثال الأكثر وضوحاً نستطيع القول بأن الأجزاء الوحيدة من العالم التي تطورت خارج أوروبا هي الأجزاء التي نجت من قبضتها: الولايات المتحدة، التي انضمت إلى المشروع نفسه بعد أن تحررت من إنكلترا واليابان، مع بعض مستعمراتها التي

في رعايتها. ومن الجدير بالذكر أن اليابان، رغم أنها قوة إمبريالية وحشية جداً، إلا أنه صادف أنها عاملت مستعمراتها بشكل مختلف عن البقية. فهي لم تصبح كهاييتي وبنغلادش، وإنما تطورت بالنسبة نفسها مثل القوة الإمبريالية. وبعد الحرب العالمية الثانية، ونتائجها، واصلت هذا النمو، وأصبحت مركز منطقة النمو الشرق آسيوية.

وفي القرن العشرين، أصبح السكان المدنيون، مرة أخرى، هدفاً رئيسياً، كما في أيام التوراة، وحروب الفرنجة، وحقب دموية أخرى. وافتتح النازيون أراضي جديدة بالإبادة الجماعية المعتمدة على الصناعة. وتذكروا أن هذه كانت القوة الصناعية، والتقنية، الأكثر تقدماً في العالم، والمركز الثقافي للغرب، بالإضافة إلى ذلك. ووصلت الهجمات العسكرية، خاصة التي تستهدف المدنيين، إلى أوجها حين قصف الحلفاء ألمانيا واليابان. وكان أكثر هذه الهجمات هولاً، قبل هيروشيما وناغازاكي، هو القصف الناري لطوكيو في آذار 1945، الذي قتل من ثمانين ألفاً إلى مائتي ألف مدني. ولم يكن أحد ينتبه كثيراً إلى الأرقام آنذاك، وهكذا فإن التقديرات تتباين بشكل واسع. ولقد ترك هذا القصف أكثر من نصف مليون في حال من التشرد في المدينة غير المحصنة. وكان الهدف من القصف الناري هو إشعال عاصفة نارية هائلة في المدينة وذلك كون منازلها مصنوعة من الخشب، والأمر كله يمكن أن يتحول إلى

وحشية مريعة، كما حدث. وأزال هذا القصف أيضاً طوكيو من قائمة أهداف القصف النووي، على أساس أن الدمار الزائد لن يكون مؤثراً، ولن يفعل أكثر من تكويم الحطام فوق الحطام، والجثث فوق بعضها. وبعد الحرب استنتج مركز مسح القصف الاستراتيجي الأمريكي أن «كثيراً من الناس فقدوا حياتهم في طوكيو بسبب النار في فترة ست ساعات أكثر مما حدث في أي وقت في تاريخ البشرية». وأحيا الذكرى الخمسين لهذا العمل الوحشي تقرير حي ومريع في مجلة فار إيسترن إيكونوميك ريفيو في هونغ كونغ، مجلة الأعمال الرئيسية في آسيا، والتي هي محافظة جداً. أما هنا، في الولايات المتحدة، فقد مرت الذكرى دون إنتباه إلى درجة أنه لم يحدث رد فعل، ولم يتحدث أحد عن الموضوع سوى تعليق في واشنطن بوست: «إذا كان هذا ما حدث من أجل النصر، فهذا ما ينبغي فعله».

وحدث كل هذا مترافقاً مع شجب قاس جداً لليابان لأنها لم تعترف بشكل كامل بخطيئتها في قصف قاعدة عسكرية في مستعمرة أمريكية أخذتْ من سكانها بالقوة والخداع منذ نصف قرن. كان قصف بيرل هاربور جريمة، ولكن في حشد من الجرائم من الصعب الادعاء أنها تحتل مرتبة عالية. وكما يظهر الاعتذار الياباني الذي نقتبس منه هنا، فقد عبرت اليابان رسمياً «عن توبة صادقة عن ماضيها، وعن العدوان، والحكم الكولونيالي» للصين، وبلدان أخرى في آسيا. لكن هذا البيان

الياباني الرسمي شُجب بقوة في الولايات المتحدة، وترافق هذا الشجب مع مقالات صحفية معتدلة عن الأخطاء الغريبة في الشخصية اليابانية التي تمنعهم من الاعتراف بالخطيئة. وكان السبب هو أن الاعتذار ترافق مع ذكر لحقيقة أنه كانت هناك فظائع إمبريالية أخرى في آسيا، وهذه إشارة ضمنية إلى أن سجلات هولندا، وإنكلترا، وفرنسا، والولايات المتحدة لم تكن أيضاً نقية البتة. وهذا مثير للغضب، وكان الاستنتاج هو أن اليابانيين كانوا يتوقون مرة أخرى للتملص من الخطيئة فحسب. وإذا ما نظر الآسيويون إلى المسألة بشكل مختلف، ورحبوا، بالفعل، باليابانيين أولاً، فإن هذا سيظهر مرة أخرى أنهم «مخلوقات مضللة».

كان قصف دريسدن في أوروبا المثيل الأقرب إلى القصف الناري لطوكيو؛ وحدث في الوقت نفسه تقريباً. دمرت القوات الأمريكية، والبريطانية، المدينة، وقتلت عشرات الآلاف من سكانها، ودمرت الكثير من منجزات الحضارة الغربية، ومرت الذكرى الخمسون متزامنة مع الذكرى الخمسين لقصف طوكيو. وأثارت تحليلاً معتبراً للذات في بريطانيا، ولكنني لا أستطيع العثور على أية إشارة إليها هنا. تذكروا أن بريطانيا كانت في ذلك الوقت تتعرض لهجوم خطير، الأمر الذي لم تجربه الولايات المتحدة منذ حرب 1812. وكان للبريطانيين تجربة مباشرة مع ميراث الحرب. لكن الولايات المتحدة لم تمتلك أية

تجربة، بصرف النظر عن حربها الأهلية الإجرامية، منذ 1812. وبرأيي، إن سجلاً مطولاً من الغزو الناجح ليس جيداً للشخصية، وأعتقد أن التاريخ يميل إلى تقوية هذا الحكم. ومن الأمثلة الحديثة على هذا، ربما كان هتلر القائد الأكثر شعبية في التاريخ الألماني، في فترة ما قبل ستالينغراد.

واستمر استهداف المدنيين بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن، بحرص، لضمان أن يصبحوا غير قادرين على الدفاع أو الرد. والمثال الأبرز على هذا هو الحرب في الهند الصينية. وكي نذكركم بالحقائق الأساسية: بمساعدة من الولايات المتحدة ـ وفي الحقيقة مساعدة مشروع مارشال ـ حاولت فرنسا أن تعاود غزو مستعمرتها السابقة بعد الحرب العالمية الثانية. وأدى هذا إلى مقتل نصف مليون فيتنامي. انسحبت فرنسا في 1954، وكان هناك حل دبلوماسي يدعو إلى توحيد البلاد في سنتين مع انتخابات؛ وفصل مؤقت للقوات المسلحة عبر إخضاعها للإدارة المدنية لمدة سنتين؛ ومن ثم التوحيد تحت الانتخابات. نحن نعرف رد الفعل الأمريكي على هذا الأمر؛ فقد تم نشر الوثائق. وفي الحقيقة، نشرها في أوراق البنتاغون دانييل إلسبرغ، ولكنها أخرجتْ من التصنيف منذ ذلك الوقت. وعارضت الولايات المتحدة، بقوة، حل جنيف السياسي. أما داخلياً، وفي تقرير الأمن القومي الرئيسي، فقد دعيتْ بـ«الكارثة»، وقررت الولايات المتحدة، داخلياً، وبعد بضعة أيام من حل جنيف أنه مهما

حدث فإن الولايات المتحدة لن تسمح بحدوث الحل السياسي. وتضمن عبارة مثيرة. قال: في حال «انقلاب شيوعي محلي، أو تمرد لا يشكل هجوماً مسلحاً» ـ عبارة حاسمة ـ فإن الولايات المتحدة سترد بسلسلة من الإجراءات، والتي يمكن أن تصل إلى مهاجمة الصين، إذا اقتضت الضرورة».

إن الأسلوب مثير، والخطط أيضاً. وتم اختيار الصياغة بطريقة تظهر، بوضوح شديد، أن الولايات المتحدة ستنتهك عمداً المبدأ الأساسي للقانون الدولي، وميثاق الأمم المتحدة، الذي يعلن أن استخدام القوة هو دوماً غير شرعي إلا حين تتعرض دولة لهجوم مسلح، وفي رد فوري قبل رد مجلس الأمن. ولكن الحل كان كما يلي: «في حال حصول انقلاب شيوعي محلي ـ نقرر طبيعته ـ أو تمرد لا يشكل هجوماً مسلحاً»، ستتخذ إجراءات عسكرية، وبينها إعادة تسليح اليابان، وهجمات على الصين، وجعل تايلاند «نقطة محورية» لنشاط الولايات المتحدة التدميري في المنطقة، وإلى ما هنالك. إن هذا الانتهاك الصارخ، والمتعمد، للمبادئ الأساسية للقانون الدولي، تكرر عاماً بعد آخر، وبالصياغة نفسها. وكان هذا واضحاً في أوراق البنتاغون، وكان هذا بالفعل إحدى حالات الكشف القليلة المثيرة في أوراق البنتاغون. وكان معظم ما ظهر واضحاً تماماً، لكن هذا كان جديداً. ولم يدخل بعد إلى معظم سجلات البحث. وعلى ما يبدو اعتبر «حساساً جداً بحيث لا

تمكن معالجته»، رغم أنه مر خمسة وعشرون عاماً على نشره، وهو مهم جداً. هذه هي أصول توسع الحرب بعد أن دمرت الولايات المتحدة اتفاقيات جنيف.

التوسيع الأمريكي للحرب

دمرتْ الولايات المتحدة اتفاقيات جنيف، ونصبت نظاماً إرهابياً نموذجياً، على النمط الأمريكي اللاتيني، في فيتنام الجنوبية، وقتلت حوالي سبعين ألف فيتنامي بحلول 1960. لكن القمع الوحشي حرض على المقاومة. وكان النظام الذي نصبته الولايات المتحدة مهلهلاً بحيث أنه حالما كان يحدث أي رد فعل على قمعه يبدأ بالانهيار على الفور. واعترضت جي إف كينيدي مشكلة: كانت الدولة العميلة تنهار. وكان عليه إما أن ينسحب، أو يلجأ إلى التصعيد. اختار التصعيد. وفي 1961 و1962 هاجمت الولايات المتحدة فيتنام الجنوبية بشكل مباشر. وأرسلت القوات الجوية الأمريكية لقصفها. وكان الطيارون الأمريكيون ينفذون حوالي ثلث مهماتهم بحلول 1962. صحيح أن الطائرات كانت مموهة بعلامات فيتنامية جنوبية، لكن هذا كان معروفاً، وتناقلته الأنباء. وفي 1961 و1962 أجازت إدارة كينيدي أيضاً تدمير المحاصيل (في انتهاك لمواثيق جنيف). وفي 1963، بعد عامين، كان النظام العميل في فيتنام الجنوبية في حالة استقرار وسلام. وشكا سفير كينيدي، هنري كابوت لودج، سرياً، من أن النظام العميل لم يكن «دولة بوليسية قوية

جداً . . . لأنه، على عكس هتلر الألماني، ليس فعالاً، ولم يكن قادراً على كبح «المعارضة السرية الكبيرة، وذات التنظيم الجيد، التي يحرضها، بقوة وعناد، حقد متأجج»، ضد النظام العميل، والغزاة الأجانب، الذين فرضوه. وبالمصادفة، وكما تكشف هذه المصطلحات وتظهر بقية الوثائق التدوينية، رغم بعض الادعاءات القليلة، لم يكن هناك شك جدي، على المستوى الداخلي، بأن الولايات المتحدة كانت في حال حرب مع فيتنام الجنوبية. ومهما كان تفكيركم بشرعية التدخل الفيتنامي الشمالي في فيتنام، إلا أن الحقيقة هي أنه لم يحصل تدخل فيتنامي شمالي مباشر حتى مشتبه به إلا بعد سنوات، بعد أن وسعت الولايات المتحدة الحرب إلى قصف فيتنام الشمالية.

وبسبب هذه الأخطاء، أي غياب فعالية هتلرية في القمع، واتخاذ خطوات نحو حل دبلوماسي، تمت الإطاحة بالنظام العميل من خلال انقلاب عسكري دعمته إدارة كينيدي بقوة. وجاء هذا كتنفيذ للسياسة التي طلبها كينيدي، في الحقيقة، إلى النهاية ـ كان أحد الصقور الحقيقيين في إدارته ـ أي أن النصر العسكري في فيتنام الجنوبية يجب أن يُضمن قبل أن يُنظر في أي حل دبلوماسي، أو انسحاب للجيش الغازي، الذي أرسله. وهناك الكثير من التشوش حيال هذا في الولايات المتحدة، مرتبط بكثير من نظريات اغتيال كينيدي، لكن السجل غني جداً، وواضح، ومتماسك بشكل غير عادي.

وفي شباط من عام 1965 صعّدتْ الولايات المتحدة الحرب ضد فيتنام الجنوبية بشكل جذري وبدأت أيضاً، جانبياً، بقصف منتظم لفيتنام الشمالية ولكن بمستوى أقل. وكانت هذه مسألة جماهيرية كبيرة في الولايات المتحدة: هل ينبغي أن نقصف فيتنام الشمالية؟ لقد تم تجاهل قصف فيتنام الجنوبية. والأمر نفسه يظهر في التخطيط الداخلي، الذي نملك حوله سجلاً غنياً الآن، ليس من أوراق البنتاغون فحسب، وإنما من أطنان من الوثائق، التي لم تعد مصنفة، والتي أطلقت في العامين الأخيرين. وظهرت، مرة أخرى، إحدى أهم حالات الكشف المثيرة لأوراق البنتاغون: أنه لم يكن هناك تخطيط للقصف التصعيدي لفيتنام الشمالية. كان هناك تخطيط موسوس جداً حيال قصف فيتنام الشمالية تم تحديده بعناية، ومتى يجب تنفيذه، والكثير من الكفاح من أجله. إن قصف فيتنام الجنوبية الذي بلغ ثلاثة أضعاف قصف فيتنام الشمالية بالكاد نوقش. وهناك بعض القرارات العرضية هنا وهناك. والأمر نفسه يظهر في مذكرات مكنمارا الأخيرة. فهو يناقش، بشكل مطول جداً، قصف فيتنام الشمالية. لكنه لا يذكر قصف فيتنام الجنوبية حرفياً. ويذكر ما فعله في الحادي والعشرين من كانون الثاني 1965، والذي كان بالفعل يوماً مهماً: دارت مناقشة كبيرة حول إن كان يجب قصف فيتنام الشمالية. لكنه لا يذكر ما نعرفه من وثائق أخرى، أنه في اليوم نفسه، أجاز للمرة الأولى، استخدام

الطائرات النفاثة لتصعيد القصف ضد فيتنام الجنوبية، بعد كل ذلك القصف الشمولي، الذي كان يحدث طوال سنوات، لكن هذا لم يُذكر.

أعتقد أن سبب هذا واضح، بشكل لا يسر، في الوعي العام، وفي التخطيط الداخلي، ولكنه يستحق الانتباه، هذا إن كان البشر راغبين بالنظر في المرآة. والسبب هو أن قصف فيتنام الشمالية كان مكلفاً للولايات المتحدة. كان مكلفاً في الرأي العالمي لأنه كان قصفاً لما كان يُعدُّ آنذاك دولة تمتلك سفارات، وإلى ما هنالك. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك خطر من أن يحدث رد. كانت الولايات المتحدة تقصف سكة حديد صينية داخلية تمتد من جنوب غرب الصين إلى جنوب شرقها. ونصبت عبر الجزء الشمالي من فيتنام بسبب الطريقة التي نصب بها الفرنسيون سكك الحديد. وكانت الولايات المتحدة تقصف السفن والسفارات الروسية. الصين وروسيا يمكن أن تردا. وهكذا فالأمر كان خطيراً. كان هناك كلفة كبيرة لقصف فيتنام الشمالية. من ناحية، كان القصف الأكبر، والشامل لفيتنام الجنوبية غير مكلف. لم يكن هناك شيء يستطيع الفيتناميون الجنوبيون القيام به حيال ذلك. وفقاً لذلك، لم تكن مسألة في ذلك الوقت. لم تكن هناك احتجاجات على الأمر. وفعلياً لم يكن هناك أي احتجاج. كانت الاحتجاجات كلها متمحورة حول قصف فيتنام الشمالية، لكنها اختفت من التاريخ، وهكذا يجب

ألا تُذكر في مذكرات مكنمارا، أو في مذكرات أخرى، وكما قلت: لم يكن هناك حتى أي تخطيط لذلك. كان هناك قرار عرضي فحسب، لا يكلفنا أي شيء، فلماذا لا نقتل المزيد من البشر؟ إنها حادثة مثيرة تخبركم الكثير عن التفكير الذي كان يجري من الأيام الأولى إلى الوقت الحاضر. نحن لا نتحدث عن التاريخ القديم كما حين نتحدث عن عماليق، وحروب الفرنجة، وجنكيز خان.

اتسعت الحرب عندئذ. وسعت الولايات المتحدة الحرب إلى لاوس وكمبوديا. وكما في فيتنام، ولاوس وكمبوديا، أيضاً، كانت الأهداف مدنية بشكل رئيسي. وكان الهدف الرئيسي دوماً هو فيتنام الجنوبية. وشمل هذا قصف كثيف لدلتا ميكونغ المكتظة بالسكان، وغارات جوية استهدفت جنوب سايغون، كانت تستهدف، بشكل محدد، القرى والبلدات. كانوا يقررون: «لننفذ غارة بطيران البي 52 ضد هذه البلدة». وشُنَّتْ عمليات إرهابية ضخمة مثل «سبيدي إكسبرس»، و«البحار الشجاع»، وعمليات أخرى، استهدفت، بشكل رئيسي، تدمير القاعدة المدنية للمقاومة.

يمكن أن تقولوا: إن مجزرة ماي لاي كانت حاشية صغيرة لإحدى هذه العمليات، غير دالة في السياق. كان الصاحبيون (الكويكرز) يمتلكون عيادة في الجوار، وعرفوا عنها على الفور لأن الناس كانوا يأتون جرحى ويروون القصص. لم يضايقوا

أنفسهم حتى بالإخبار عنها لأنها كانت عادية، وتحدث طوال الوقت. لا شيء خاصاً حيال مجزرة ماي لاي. لكنها حظيت بكثيرة من الاهتمام فيما بعد، بعد الكثير من التعتيم، وأعتقد أن السبب واضح: يمكن أن يلقى اللوم على الجنود المتطوعين، نصف المجانين، في الميدان، الذين لم يعرفوا من كان سيطلق النار عليهم في المرة التالية، وحُرف الانتباه بعيداً عن القادة، الذين كانوا يديرون الفظائع بعيداً عن المشهد، مثلاً: الذين يخططون لغارات البي 52 على القرى. وحُرف الانتباه أيضاً عن المدافعين في الوطن، الذين كانوا يشجعون كل هذا ويدافعون عنه. كلهم يجب أن يحصلوا على الحصانة من النقد، ولكن لا بأس من القول أن اثنين من الجنود، نصف المجانين، فعلوا شيئاً ما مخيفاً. وطلبت مني صحيفة نيويورك ريفيو أوف بوكس أن أكتب مقالة عن مجزرة ماي لاي حين كُشفتْ، ولقد فعلت ذلك، ولكنني بالكاد ذكرتها. تحدثت عن السياق، الأمر الذي أعتقده صحيحاً.

كان واضحاً في أوائل السبعينيات أن الولايات المتحدة قد ربحت الحرب تماماً. وأنجزت أهداف حربها الأساسية، والتي، كما كشف السجل الوثائقي، كانت ضمان أن ذلك التطور الناجح، والمستقل، في فيتنام، لن يكون ما يدعى بـ الفيروس»، الذي يصيب الآخرين بالعدوى، ويقودهم إلى إتباع المسار نفسه، وربما يقود إلى تكيف ياباني مطلق مع آسيا مستقلة،

كقلب صناعي لنوع من نظام جديد في آسيا خارج السيطرة الأمريكية. وخاضت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية في منطقة المحيط الهادئ، بشكل كبير، لمنع تلك النتيجة، ولم تكن راغبة بقبولها بعد الحرب مباشرة. بعد سنوات قال مكجورج بندي، الذي كان مستشار كينيدي وجونسون للأمن القومي: إن الولايات المتحدة كان يجب أن تنسحب من فيتنام في 1966، بعد المذبحة في اندونيسيا. وكان هذا يشبه كثيراً ما حدث مؤخراً في رواندا. فالجيش إما قتل أو شجع على قتل حوالي نصف مليون إلى مليون شخص في غضون بضعة أشهر، بدعم وتشجيع أمريكي مباشر. وقضى هذا، بشكل نهائي، على الحزب السياسي الوحيد المستند إلى الجماهير في البلاد. واستهدفت المجزرة، في المقام الأول، فلاحين لا يملكون أرضاً. ووصفت السي آي إي تلك المجزرة بأنها تشبه مجازر ستالين، وهتلر، وماو. وتم الترحيب بها هنا بسعادة واضحة، في الطيف السياسي، وكثيراً بين الجماهير. يجب أن تُقرأ كي تُصدق. وهي بالتأكيد ستختفي من التاريخ. إنها مربكة كثيراً فحسب، رغم أنها متوفرة علناً. وكانت فكرة بندي هي أنه بما أن فيتنام قد تم تدميرها بشكل كبير، ولُقِّح المحيط بالأسلوب الاندونيسي، لم يعد هناك أي خطر حقيقي من أن يصيب الفيروس بالعدوى أي شخص، وكانت الحرب تدل على حماقة بالنسبة للولايات المتحدة بشكل أساسي.

بعد الحرب

حسناً، تواصلت الحرب. وتركنا خلفنا تراثاً مرعباً: ربما قُتل أربعة ملايين شخص في الهند الصينية، وملايين كثيرة يُتِّمتْ، أو أقعدتْ، وحولت إلى لاجئين، وتم تدمير ثلاث بلدان، وليس فيتنام فحسب. وفي هذه اللحظة لا يزال الناس في لاوس يموتون من قنابل صغيرة غير منفجرة، والتي هي من مخلفات أضخم قصف للمناطق المدنية في التاريخ، والذي فاقه فيما بعد قصف كمبوديا.

أما في فيتنام، فقد شكل جزءاً من تراث الحرب في الحاضر التأثير المتواصل للحملة غير المسبوقة من الحرب الكيماوية، التي تمت في عهد إدارة كينيدي. تلقت الحرب الكيماوية، في الحقيقة، كمية جيدة من التغطية الإعلامية هنا. والسبب هو أن الجنود الأمريكيين تأثروا بها. وهكذا، فأنتم تعرفون عن العامل البرتقالي*، والديوكسين، وتأثيرهما على الجنود الأمريكيين؛ الذي حظي بتغطية إعلامية. وبالطبع، تأثر كثيرون، وهذا لا يشكل جزءاً بسيطاً من التأثير الذي حل بالفيتناميين، لكن هذا لا يجذب أي انتباه، رغم أن هناك بعض الانتباه أحياناً. ولم أعثر إلا على بضع مقالات عن الموضوع. إذ نشرت وول ستريت جورنال مقالة رئيسية عن الأمر في شباط

---

* مبيد للأعشاب ـ المورد.

1997 قالت فيه: إن نصف مليون طفل ولدوا بتشوهات ناجمة عن الديوكسين، نتيجة لملايين الأطنان من المواد الكيماوية، التي أشبعتْ فيتنام الجنوبية، أثناء المحاولات الأمريكية لتدمير المحاصيل وكساء الأرض، والتي بدأت مع إدارة كينيدي. وأفادت أيضاً أن العلماء اليابانيين، الذين يعملون مع العلماء الفيتناميين، اكتشفوا نسباً من تشوهات ولادة في القرى الجنوبية أعلى بأربع مرات منها في الشمال، الذي استثني من هذا الرعب الخاص. ناهيك عن أكوام الآنية التي تحتوي على أجنة مجهضة، مولودة ميتةٍ، أحياناً تدمرها سرطانات نادرة، وهي تملأ غرف المستشفيات في جنوب فيتنام، وتتحدث عنها الصحافة الأجنبية، بين الفينة والفينة، أو المواد التقنية المنشورة هنا، بالإضافة إلى اضطرابات صحية وافرة ما تزال نسبتها مرتفعة جداً في الجنوب، رغم أنها غير موجودة في الشمال. ويعترف تقرير وول ستريت جورنال أن الولايات المتحدة مسؤولة عن الفظائع التي تذكرها، والتي لا تزال تحدث كارثة بفيتنام الجنوبية. وتفيد أيضاً أن فيتنام تلقت بعض المساعدة الأوروبية، واليابانية، كي تحاول التغلب على الكارثة، ولكن الولايات المتحدة، التي «استنفدت عاطفياً» بعد خسارة الحرب، لم تكترث بالأمر». وتعني «خسارة الحرب» أن الحرب لم تحقق هدفها الأعلى من الغزو الكلي، لم تحقق إلا أهداف الحرب الأساسية، والتي هي تدمير الفيروس، وتلقيح المنطقة. ولكن

المسألة هي أننا عانينا كثيراً من تدمير الهند الصينية، ولقد «استنفدنا عاطفياً» من هذا، بحيث لا يمكن توقع أن نقدم مساعدة للتغلب على ميراث العدوان، ناهيك عن بعض الشعور بالإثم حيال ذلك[1].

كانت المادة الأخيرة، التي قرأتها عن هذا الأمر، قبل هذه، منذ بضع سنوات، في 1992، في القسم العلمي من نيويورك تايمز، وهي للمراسلة في جنوب شرق آسيا باربارا كروسيت[2]. تفيد أنه كان هناك شعور بين العلماء بأن فشلنا في الانخراط في هذا المظهر الخاص لتراث الحرب ليس فكرة جيدة. وكتبت قائلة: إن رفضنا لدراسة تأثيرات الحرب الكيماوية هو خطأ، والسبب هو أن فيتنام «تجهز مجموعة سيطرة شاملة». والنقطة هي أن الفيتناميين الجنوبيين هم الذين تم رشهم فحسب، وتعرض كثير منهم لخطر جسيم بينما لم يتم رش الشماليين، وكما تعرفون، يمتلكون الجينات نفسها، وإلى ما هنالك، وهكذا فالأمر نوع من التجريب المسيطر عليه، فإذا ما قبلنا عروض التعاون الفيتنامية، يمكننا تعلم الكثير عن تأثيرات الديوكسين من هذه التجربة الهامة، ويمكن أن تكون النتائج مفيدة لنا. ولهذا من العار ألا ننتهز الفرصة. ولكن هذا

1. بيتر والدمان، «في فيتنام، ألم تشوهات الولادة يستدعي حرباً قديمة إلى الذهن»، وول ستريت جورنال، 18 شباط، 1997.

2. باربارا كروسيت، نيويورك تايمز، 18 آب، 1992، قسم العلم.

ليس خطأنا، ولا تأتي أفكار أخرى إلى الذهن؛ فنحن منهكون جداً على المستوى العاطفي بحيث لا نستطيع أن نقدم أية مساعدة.

يجب أن أقول إن هذا المستوى من الجبن الأخلاقي يمكن أن يحطم بعض الأرقام القياسية، لكن الصورة الكاملة لا تزال أكثر إدهاشاً. في ما يجب أن يكون، كما أعتقد، إنجاز الدعاية الأكثر إدهاشاً في التاريخ، نجحت الولايات المتحدة في نقل اللوم إلى الفيتناميين. وظهر أننا الضحايا الأبرياء حين هاجمناهم ودمرناهم، ولكن فضلاً عن ذلك، نحن مقدسون بحيث لا ننشد جزاء جريمتهم ضدنا. لا نطلب إلا أن يعترفوا بخطيئتهم ويعتذروا، هذا مال قاله جورج بوش في خطاب نشر على الصفحة الأولى في نيويورك تايمز. وإلى جانبه تماماً كان هناك عمود آخر، واحدة من مواد كثيرة تشجب اليابانيين وتتساءل: أي خطأ ثقافي هذا، أو مرض وراثي، يجعل من المستحيل بالنسبة لهم أن يعترفوا بالجرائم التي ارتكبوها.

ويستمر المشهد سنوياً، دون أن يحرض على أي تعليق. ويستمر اليوم، في الحقيقة، ويصل باستمرار إلى ارتفاعات جديدة، وتقريباً قابلة للتصور. وظهر مؤخراً أن الفيتناميين كانوا موافقين في النهاية على مواجهة خطيئتهم قليلاً، وعلى دفع تعويضات مقابل جرائمهم ضدنا. فهناك مادة نشرتها نيويورك

تايمز في الصفحة الأولى تفيد أن فيتنام وافقت على أن تدفع لنا الديون التي جلبها على نفسه النظام العميل، الذي نصبناه في فيتنام الجنوبية كغطاء للهجوم العسكري، وهكذا تقول نيويورك تايمز: نستطيع الآن «أن نحتفل بنهاية فصل قاس في التاريخ الأمريكي». على الأقل بدأ المجرمون يواجهون خطيئتهم، وبالتالي سنغفر لهم، بشهامة، بما أنهم، على الأقل، يدفعون مقابل ما فعلوه، بالإضافة إلى أنهم يعترفون به، رغم أننا لا نستطيع أن ننسى مطلقاً ما فعلوه بنا، كما حذرهم جورج بوش، وآخرون، بقسوة.

حسناً، ربما في أحد الأيام ستدفع حكومة جديدة في أفغانستان الديون التي سببها النظام السوفياتي العميل في كابول كغطاء لغزو روسيا لأفغانستان في 1979 بحيث تستطيع روسيا الاحتفال بنهاية فصل قاس في تاريخها، وربما يمكن أن تتغلب على حقيقة أنها مستنفدة عاطفياً؛ وربما سيعترف الأفغان، في النهاية، بخطيئتهم بسبب مقاومتهم للغزو الروسي، الذي ربما سبب مقتل مليون شخص، ودمر البلاد، الأمر الذي ازداد سوءاً بتدعيم أمريكا للقوات الإرهابية التي دمرت ما تبقى من المكان. على أي حال، هذا لن يحدث. والسبب هو أن روسيا خسرت تلك الحرب، وبعد ذلك بوقت قصير، انهارت، جزئياً نتيجة لتلك الهزيمة. وفي تشرين الأول من عام 1989، اعترفت

حكومة غورباتشوف رسمياً بأن هجومها على أفغانستان كان غير قانوني، وغير أخلاقي، وأن الجنود الروس البالغ عددهم ثلاثة عشر ألف، والذين قتلوا، والكثيرين الذين تبقوا في الخلف، في السجون الأفغانية، كانوا منخرطين في انتهاك أعراف السلوك، والقانون الدولي. وحصل ذلك الاعتراف في 1989 في عناوين في الصفحات الأولى في الولايات المتحدة وبلغة، تعتد بالفضيلة الذاتية، تحدثت عن الشيوعيين الأشرار، والملحدين، الذين بدؤوا أخيراً ينضمون إلى الحضارة الغربية، رغم أنه من الواضح أن أمامهم طريقاً طويلاً يجب أن يجتازوه.

ولا يمكن التوقع إطلاقاً أن الولايات المتحدة ستحذو حذو روسيا فيما يتعلق بسلوكها العنيف في الهند الصينية. وكان هذا جلياً، مرة أخرى، في الإعجاب الشديد بمذكرات مكنمارا، التي حققت أفضل المبيعات. تتذكرون أنه شُجبَ كخائن، أو مُدح لشجاعته من قبل آخرين، لأنه قال: إن الولايات المتحدة ارتكبت أخطاء كانت مكلفة لنا. ولقد شُجبَ أو مُدِحَ بسبب اعتذاره، ليس من أجل اعتذاره من الضحايا في الهند الصينية ـ لم يعتذر منهم مطلقاً ـ وإنما من أجل اعتذاره للأمريكيين. سأل إن كانت «الكلف المرتفعة» مبررة، مشيراً إلى القتلى الأمريكيين، وإلى الضرر الذي لحق بالاقتصاد الأمريكي، و«الوحدة السياسية» للولايات المتحدة. لم يكن هناك اعتذارات للضحايا، وبالتأكيد لم يكن هناك أي تفكير بمساعدة أولئك

الذين يواصلون المعاناة والموت. على العكس، إنها مسؤوليتهم في أن يدفعوا لنا تعويضات، ويعترفوا بخطيئتهم. ومن المذهل حقاً أنه كان بين أولئك الذين يمدحون مكنمارا، بسبب تبنيه لهذا الموقف، بعض القادة الأخلاقيين، الذين عارضوا الحرب في فيتنام بقوة. مدحوا مكنمارا لأنه تبنى موقفهم في النهاية، الذي، إن كانوا يفكرون ـ وأعتقد أنهم لا يفعلون ذلك ـ يعني أن موقفهم هو أنه من الرائع الهجوم على بلاد أخرى وتدميرها طالما أن الأمر لا يكلفنا الكثير، بغض النظر عن التأثيرات، ثم أن نجعلها تقبل اللوم، وتدفع لنا تعويضات للكلف التي جلبناها عليها من خلال تدميرها. أشك إن كان أي شخص سيوافق على أن هذا هو موقفهم، لكنه الموقف الذي يعبرون عنه ضمنياً.

إن الدروس العامة للتاريخ واضحة بما فيه الكفاية. ويواجه الخاسرون تراث الحرب. لدينا آلاف الأعوام من السجلات المتماسكة حول ذلك. الأقوياء مستنفدون عاطفياً، أو يهيمن عليهم تملق الذات بحيث لا يستطيعون لعب أي دور، أو تحمل أية مسؤولية، رغم أن قيامهم بتصوير أنفسهم كضحايا يعاني في شكل غير عادي من أشكال الجبن الأخلاقي. إنه خطوة جيدة إلى ما هو أبعد من «تقديس الحرب»، والأشكال الجديدة التي اتخذها، مع نشوء الأديان العلمانية للحقبة الحديثة، وبينها حقبتنا.

ومن دروس التاريخ الأخرى هو أنه من السهل جداً أن

نرى جرائم الشخص الآخر، وأن نعبر عن ألم نابع من القلب، وعن غضب حيالها، والذي يمكن أن يبرر بشكل جيد، ويمكن أن يقود أحياناً إلى مساعدة الضحايا، وكل هذا جيد، كمساعدة الاستبداد السوفياتي لضحايا الجرائم الأمريكية، التي تمت فعلاً. ولكن وفقاً للمبادئ الأخلاقية الأولية ليس هذا الأداء مؤثراً. فالحد الأدنى من الفضيلة الأخلاقية سيكون الرغبة بأن تسلط الضوء على نفسك بصراحة وصدق. هذا هو الحد الأدنى. أما في المتابعة إلى ما وراء هذا الحد الأدنى العاري فإن الفضيلة الأخلاقية تقتضي الفعل من أجل فائدة الضحايا، والضحايا الذين سيسقطون في المستقبل، إذا لم تعالج أسباب الجرائم بصدق وفعالية. وبين هذه الأسباب هناك البنى المؤسساتية، التي تبقى دون تغيير، والتي تتدفق منها السياسات، وأيضاً المواقف السياسية والأنظمة العقائدية التي تدعمها، وتقود إلى أمور من النوع الذي كنت أتحدث عنه. وهذه مسائل أعتقد أنها يجب أن تهمنا كثيراً جداً، وينبغي أن تكون في لب البرنامج التربوي في مجتمع حر من بداية الطفولة حتى سن الرشد.